المحاضرة الثانية

أثر ظاهرة الاستشراق في التراث العربي الأدبي و اللغوي بين التشكيك و الأصالة

عكس الاستشراق في دراسته لعلوم الشرق وآدابه صورا متنوعة وقفت وراءها غايات استشراقية سلبية و إيجابية وأثرت في الطابع الثقافي والعلمي عند المتلقي العربي وذلك، ومنها:ـ

أولا: قضية انتحال الشعر الجاهلي

إنّ الانتحال والطعن في الشعر الجاهلي هو من مساوئ وسلبيات المستشرقين في دراساتهم وبحوثهم عن الشرق الإسلامي، فالتشكيك في التراث العربي عامة والشعر الجاهلي خاصة وقفت خلفه غاية أخرى، هي الوصول إلى التشكيك بالقرآن الكريم والطعن في إعجاز القرآن الكريم.

إنّ إنكار الشعر الجاهلي بل الأدب الجاهلي برمته هو إنكار لكون القرآن الكريم معجزة جاءت لتحدي العرب الذي برعوا في البلاغة والفصاحة والبيان وصناعة الكلام ،وأول المشككين كان المستشرقان مرجليوث ونولدكه

يقول مرجليوث :إنَّ الشعر الذي جُمع ونُسب إلى الجاهلين من الشعراء هو مصنوع ومنحول ،ثم صنع في العصور الإسلامية اللاحقة، وهو أي مرجليوث يشير إلى العدد الكبير من الشعراء الجاهليين الذين وردت أشعارهم ضمن الأدب الجاهلي فشك أنّ هذا الكم الهائل من الشعر قد حُفظ بالرواية الشفهية ثم دونّ وكُتِبَ. وهو بهذا يزعم إن الشعر الجاهلي يمثل مرحلة تالية بعد نزول القرآن الكريم وليس قبله ،و يدعي أنَّ التطور في الأسلوب انتقل من القرآن إلى الشعر يعضد ذلك وجود قصص وأخبار الماضيين في هذا الشعر قريب مما هو موجود في القرآن.

وهذا يعني أنه لا يؤمن بمصداقية الشعر الجاهلي تاريخيا وبلاغيا، وكل ما كان يملكه العرب ـ من وجهة نظره ـ شعرا غير منتظم ولا كامل الفصاحة ،وكل ما فيه من فصاحة وبلاغة وبيان تأثرا بالقرآن الكريم، فنضج عند العرب الشعر بعد أن أطلعوا على فصاحة القرآن.

ثم يأتي إلى مسألة الرواة ويصفهم بعدم الوثاقة أمثال حماد الراوية وخلف الأحمر، فضلا عن أنَّ الشعراء الجاهليين كانوا يمثلون لسان الوثنية الناطق ،والإسلام أبطل الوثنية وحاربها ،فلم يتم حفظ هذه الأشعار من وجهة نظره لأنَّ الإسلام انكرها وأبطلها شفاهه. ويحاول أن

يُعضد رأيه فيدعي أنَّ هذا الشعر الجاهلي يسرد قصصاً دينية مشابهة لما ورد في القرآن مما يؤكد أنه قيل بعد نزول القرآن الكريم.

س/ وأنت أيها الطالب في مرحلة الماجستير بوصفك باحثاً في اللغة العربية ما رأيك وما ردك على أمثال هؤلاء المستشرقين؟

ثانياً: اللهجات العربية بديلا عن اللغة الفصحى

انكب المستشرقون على دراسة اللهجات العربية الحديثة (العامية) بحجة أنها تمثل الواقع اللغوي و المستوى الاستعمالي المتداول للغة في التكلم والتخاطب، ثم ما لبثوا بعد هذه الدراسات إلى الدعوة إلى (التغريب اللغوي) أو (الانسلاخ اللغوي) أي هجر اللغة العربية الفصحى وإحلال العاميات مكانها في المخاطبات الرسمية كتابة وتكلماً، وقدموا أسبابهم لذلك ،أهمها:

أ- أنَّ هذه العاميات تمثل لغة التخاطب اليومي والحوار المتبادل ،فهي بذلك أكثر نجاعة في التفاهم بين المجموعات اللغوية.

ب-تعقيد اللغة العربية الفصحى ،وكثرة التنظيرات والقواعد وغموض أساليبها ،والزام المتحدث بها مراعاة الأعراب فيها. كل هذه أسباب للدعوة الى تيسير لغة التخاطب بالاتجاه الى العاميات.

ج- اللغة العربية الفصحى لغة جامدة لا تواكب التطورات في الحياة ،سواء العلمية أو الفكرية.

ومن هذا المنطلق قاموا بتأليف كثير من المعجمات باللهجات العامية، وهم لم ينطلقوا في دراستهم للهجات بوصفها نشاطاً علمياً متصلاً باللغة والفكر بل منطلقهم أبعاد المجتمع الإسلامي عن لغة القرآن الكريم وأحداث قطيعة فكرية وتاريخية ولغوية ودلالية عن هذه اللغة المقدسة.

ثالثاً: اللغة العربية الفصحى (اللغة الأدبية المشتركة)

وصف المستشرقون نشأة الفصحى في العصر الجاهلي بأنَّها نشأت على أساس الاختيار اللاشعوري، وهي – عندهم ـ لغة معربة تعلو على اللهجات وتكونت عبر توحد اللهجات في مكة مركز المال و الدين في ظل ظروف اجتماعية وسياسية وفكرية معينة.

وصرح نولدكه أنَّ اللغة العربية الفصحى لغة جامدة وثابتة تاريخياً، وهذا يعني من وجهة نظره معوقاً لغوياً سيئاً على تطور اللهجات ،ويصف الأمر أنَّ اللغة آنذاك قد ابتلعت اللهجات وغيبتها. هذه الدعوات الاستشراقية مبتغاها تسقيط اغة القرآن الكريم.

رابعاً: إعراب القرآن الكريم

شكك المستشرقون في الوجه الإعرابي للغة القرآن الكريم، فذهب كارل فولرز إلى أنّ بدايات القرآن الكريم كانت غير معرب، وإنه كان يُتلى بلهجة حجازية تخلو من حقائق اللغة العربية البارزة وهي الإعراب، ثم خضع للتنقيح في قواعد قراءته لكي يكون على غرار اللغة الشعرية المعربة.

فيما يؤكد الدارسون العرب قديماً وحديثاً أنَّ الإعراب ظاهرة مطردة في تلاوة القرآن الكريم والشعر الجاهلي، لأنه – أي الإعراب – إنما يعكس الواقع اللغوي الحي، علماً أنّ المقصود بالإعراب لغة الإبانة والوضوح- واصطلاحاً هو الإعراب بالحركات والحروف أو الإبانة عن المعاني النحوية كالفاعلية النحوية والمفعولية والإضافة.

خامساً: نقد الرواية اللغوية

انتقد بعض المستشرقين رواية اللغة وجمعها وتقعيدها التي قامت على الانتقائية والمعيارية المتشددة، ورأى هؤلاء المستشرقين أنَّ علماء العرب قد ضيعوا ثروة لغوية فصيحة لا يُستهان بها ،لذا جاءت عملية الجمع ناقصة ومشوهة لأنها لم تستوعب كل الألفاظ والتراكيب في العربية ولم تشمل كل اللهجات، فضاعت طائفة كبيرة من الكلمات والجمل والتراكيب.

سادساً: الخط العربي و أصالته

كما شكك بعض المستشرقين بأصالة الخط العربي مثل بروكلمان ونولدكه وفيشر وليتمان فايل، واستنتجوا أنَّ الخط العربي مأخوذ من الخط العربي النبطي- الآرامي، ولذلك اختلفت القراءات في القرآن الكريم، وحتى في رسم خطة، كما في الكلمات صلوة / صلاة، ورحمت/ رحمة، وسنت/سنة، وامرأت/ امرأة، وعزوا كذلك إلى أنَّ في القرآن كلمات عامية من لهجات عربية مثل لهجة طيء الذين يقولون: هذهِ فاطمت/ فاطمة، وبقيت / بقية وغيرها.

ولا ننسى محاولاتهم الأُولى بإشاعة أنَّ العربية الأدبية هي مجرد مزيج من لهجات متفرقة وخليط من أقوام متعددة، وليست هي لغة انتقائية قامت على اختيار الأفصح والأكثر بلاغة وبياناً.

سابعا: المذاهب النحوية

عبر تحقيق كثير من المستشرقين كتب علماء اللغة والنحو القدماء شكك هؤلاء بوجود النضوج والتكامل العلمي الذي طرح تنوعاً في المذاهب والمدارس النحوية مما ينم ذلك على تطور العقل العربية آنذاك ويفصح ذلك بدوره عن المستوى الفكري عند العرب.

فقد انكر أحد المستشرقين وهو هولد فايل في وجود مذهب كوفي في النحو له مزاياه وخصائصه النحوية المتفردة، واعتقد أنَّ المدرسة الكوفية ما هي إلّا المدرسة البصرية نفسها في امتدادها وتطورها وحجته أنَّ المذهب البصري قد بسط نفوذه الكامل وزعامته المتفردة

على الساحة النحوية آنذاك، فأكثر المصنفات والآراء النحوية كانت بصرية، وأشهر علماء النحو كانوا بصريين ،ثم بدأ فايل بتضعيف وجود مذهب كوفي، ويدعي أنَّ اطلاق تسمية (كوفي) توعز إلى أنها تسمية إقليمية غير موضوعية، وهي تسمية بعيدة عن الخلاف النحوي بين المذهبين، ولا تفصح عن الاختلافات بينهما، ويُعضد هذا عنده كثرة مصنفات ومؤلفات البصريين تقابله قلة مصنفات الكوفيين ثم أنَّ النحو البصري يمثل نحواً رسمياً ترسخ بالمصنف الأول (كتاب سيبويه) الذي كان مرجعاً لنحاة الكوفة، كما أنَّ المذهب البصري مذهب قائم على منهج صارم وشديد يتوقى الدقة في تقنيين القواعد وضبط النظرية النحوية باستعمال المنطق مما يعزز قوة براهين حتى أصبحت تحليلاتهم تُغري المُتلقي آنذاك ثم أنَّ النحو البصري امتد وتطور ليُنزل رجاله ونحاته في ساحة الكوفة وبغداد وحلبتها النحوية ويؤسسوا المذهبين الكوفي والبغدادي في بدايات القرن الرابع الهجري.

ثامناً: المخطوطات العربية و المستشرقون

لا يمكن إنكار الجهود العلمية القيمّة التي قدمها المستشرقون في الحفاظ على المخطوطات العربية بدءاً من صونها من الضياع والاعتناء بها وتحقيق الكثير منها ونشرها للقارئ العربي وفهرستها و تتبع ذلك ترجمة كثير من الكتب والمؤلفات عند التحقيق فضلاً عن ذلك كتابة بحوث ودراسات قيمة عند تحقيقها تحقيقاً علمياً.

لقد وضع علماء الاستشراق مصنفاً دقيقاً للمخطوطات بدءاً من الإشارة إلى الموضوعات التي يحتويها المخطوطة، وترجمة نبذة عن مؤلفات، وتحديد طابعها التاريخي والإقليمي ثم نسخها ووضعها في المكتبات العامة لغرض الإفادة منها.

و على الرغم من أنَّ الباعث الأول لدراسة اللغات الشرقية كان في أول الأمر دينياً وحربياً كما في العصور الوسطى غير أنّه تحول فيما بعد إلى أهداف علمية غرضها كشف كنوز العلوم الشرقية وثقت بدورها المسار العلمي بين الشرق والغرب, وأفصح أيضا عن تقدم الشرق بعلومه وحضارته وفلسفته للعالم الغربي.